العربية لغة عالمية خالدة لأنها لغة القرآن

للأستاذ محمد عادل الشريف
أمين الفتوى - ووكيل المفتي العام - الأردن

شارك المكتب الدائم للاتحاد البريدي العربي في استفتاء المكتب الدائم للتعريب بالرباط حول (علاقة الاسلام باللغة العربية) .

وقد وافانا بأجوبة قيمة لعدد من رجال الفكر في المملكة الاردنية الهاشمية تلقاها من معالي وزير المواصلات الذي أشرف في المملكة الاردنية الشقيقة على تنسيق هذه الابحاث وقد أصدر الاتحاد البريدي العربي الموقر هذه المجموعة في كتيب صغير خاص بالاستفتاء في الاردن .

ومن جلة هذه الدراسات بحث قيم لفضيلة الشيخ محمد عادل الشريف أمين الفتوى بالديار الاردنية ننشر مقتطفات ضافية منه شاكرين :

ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الامم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها ، واذا فرضنا أن شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها فان الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية احرص الناس على حياة لغتهم فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة اخرى ، ولو تضافرت عليها أمم الارض جميعها ، لانها لغة القرآن الذي هو معجزة الرسالة ومطلع الهداية ، وقد كتب محمود بك سالم في مقال (عليكم باللغة العربية) : (انها لغة المستقبل ولا شك انها لاتموت كغيرها من اللغات وتبقى هي اللغة الحية حتى يرفع القرآن نفسه من بين المسلمين لا سمح الله) .

ولا يخفى أن للغة العربية عصورا فقد مرت بها خمسة عصور .

العصر الاول — عصر الجاهلية وينتهي بظهور الاسلام ومدته نحو مائة وخمسين سنة .

العصر الثاني — عصر صدر الاسلام ويشمل بني امية ويبتدىء بظهور الاسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ .

العصر الثالث — عصر بني العباس ويبتدىء بقيام دولتهم وينتهي بسقوط بغداد في ايدي (التتار) سنة 1665 هـ .

العصر الرابع — عصر الدول المتتابعة التركية — ويبتدىء بسقوط بغداد وينتهي بمبدأ النهضة الاخيرة سنة 1220 هـ .

العصر الخامس — عصر النهضة الاخيرة ويبتدىء من حكم الاسرة العلوية بمصر وينتهي في سنة 1950م .

ففي العصر الاول كانت لغة العرب من اغنى اللغات واعرقها قدما واغزرها مادة وهي على ما هي

عليه من قوة وتناسق أجزائها لغة قوم أميين لم يكونوا فى حكمة اليونان ولا صنعة الصين ذهبوا وبقيت سائرة بعدهم مع كل جيل ملائمة لكل زمان ومكان ولا عجب أن بلغت مكانتها شأوا بعيد المدى اذ كان لها من عوامل النمو والازدهار والرقي ما قلما يتهيأ لغيرها وذلك لما فيها من اختلاف طرق الوضع والدلالة والتصريف والاشتقاق وما فيها من المجازات وتعدد المترادفات ولما تشرفت به من نزول القرآن الكريم والسنة النبوية بلسانها وما رواه لنا منها ائمة اللغة وجاء به القرآن الكريم والحديث النبوي هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التي سكنت جزيرة العرب ، ولا يعلم بالضبط جميع الاسباب التي أدت الى اندماج لغات بعض هؤلاء الشعوب فى بعض وغاية ما علم من الآثار الحجرية وبعض الروايات انه كان لجنوبي الجزيرة وشماليها لغات متميزة كل التميز عن العربية التي رويت لنا درست وبقيت منها اشباح تتراءى أحيانا فى بعض لهجات العربية الاخير وطرق أعرابها واشتقاقها ، اما سبب اختلاف لهجات العرب فهو أن الامة العربية تألفت أخيرا من شعبين عظيمين (القحطانيين) أو (اليمانيين) و (النزاريين) وتشعب من كليهما شعوب وقبائل لها لهجات مختلفة الفروع متحدة الاصول ، ولا ننسى أن البيئة ونزوح الديار ووسائل المعيشة كل ذلك بالاضافة الى غيره قد أبقى فى كلام كل قبيلة ميزات ما يسمى مجموعها باسم لهجة القبيلة أو لغتها .

العصر الثاني : عصر الاسلام : كانت اللغة العربية لاتعدو أغراض المعيشة البدوية واثارة المنازعات والمشاحنات الا ان روحا من الله تنسم بين ارجائها فأيقظها من رقدتها وأرشدها الى التعاون على البر والتقوى فى معاشها ولغتها وجماعتها فظهر ذلك جليا واضحا فى الاسواق التجارية اللغوية الاجتماعية وفى الاذعان فيها الى الفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرهما لان يجتمعوا تحت لواء واحد ، ويتفاهموا بلسان واحد فكان ذلك ايذانا من الله باظهار الاسلام فيهم ولكن نفوسهم لم تألف هذا النمط الجديد وبينما هم كذلك جاء النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لاما شعثهم ، موحدا كلمتهم مهذبا طباعهم مبينا لهم طريق الحق وجادة الصواب بشريعة واسعة تتمثل فى كلام الله ورسوله وكان من نتيجة ذلك أن اسست لهم جامعة قومية مع التفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وتفهمهم شريعة كلامه وخضوعهم بعد لزعامة ورئاسة قومه وخلفائه وولاته وفتوحهم تحت لوائهم ممالك الاكاسرة والقياصرة وغيرها من جبال البرانس (جنوبى فرنسا) الى الهند والصين) .

شاعت اللغة العربية منذ ما قبل الاسلام بتأثير الاسواق مثل (عكاظ) وغيره بالجوار والمصاهرة فتوحدت لغات العرب وتمثلت جميعها فى لغة قريش واندماج سائر اللهجات العربية فيها وأكثرها يرجع الى نزول القرآن بلغتهم وظهورها حسب الدعوة منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على أيديهم لانهم كانوا هم القائمين بأمر الاسلام بعد فتح مكة ومنهم كان الخلفاء والامراء وقادة الجيش ورجالات الدولة وبحكم الضرورة كانت لغتهم هي اللغة الرسمية بين كل القبائل وانتشرت اللغة العربية فى ممالك الفرس والروم وغيرهما بالفتوح (المغازى) ، وتقربت الاعاجم اليهم لتعليم لغتهم والدخول فى دينهم المستمد من القرآن العربي المبين ومن هنا اتسمت اغراض اللغة العربية بسلوكها منهجا دينيا فثبتت العقائد الدينية التي جاء بها الاسلام من اثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته ، ووضحت الشريعة باستنباط الاحكام المناسبة والملائمة للاحوال الشخصية زمانا ومكانا ، ولا حاجة اذا لذكر باقي العصور التي تعاقبت على اللغة العربية ، وقد قال ابن خلدون فى مقدمته وهو المؤرخ المشهور : (اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه وأغراضه كان النبي صلى الله عليه وسلم يبين لهم المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ بين لهم أسباب نزول الآيات ومقتضى الحال ..) يقول صلى الله عليه وسلم (أنا سابق العرب الى الجنة وصهيب سابق الحبشة الى الجنة ، وسلمان سابق فارس الى الجنة) ثم قال (من أحسن منكم أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالفارسية لانها اقرب الى القلب واسهل فى التخاطب) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (تعلموا العربية فانها تزيد فى المروءة) . وقال الزمخشري (الله أحمد ان جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعربية وانى لي أن انفرد عن صميم انصارهم وامتاز (أي انفصل) وانضوى الى لفيف الشعوبية (أعداء العربية) وهنا يجمل بنا أن نذكر ما قاله محمد جاد المولى بك : كان العرب قبل البعثة المحمدية قد وقعت بينهم الفرقة وتشتت الالفة كانوا اخوان وبر ودبر اذل الامم دارا لاياوون الى جناح دعوة يعتصمون بها وصلوا قبل البعثة المحمدية الى هاوية الانحلال الاجتماعي بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الامم الى أن قال (وقد جرت سنة الله فى الكائنات أن يأتي بالنور بعد الظلمة وبالمطر بعد المحل) . ومن سنته أيضا أن يبعث رسولا متى وصل الانحطاط البشري الى ذروته رحمة بعباده ورأفة بخلقه .

درجة انتشار الاسلام :

جاء فى فقه اللغة للثعالبي (من احب الله تعالى احب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ومن احب رسوله العربي احب العرب ومن احب العرب احب العربية التي نزل بها افضل الكتب على افضل العجم والعرب ومن احب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته اليها ومن هداه الله للاسلام وشرح صدره للايمان اهتم بها كاهتمام تحصيل زاده لنفسه .

يلاحظ أن الاسلام يواكب اللغة العربية ففي المكان الذي تكثر فيه المعاملات يكون الاسلام فيه اكثر انتشارا وتعتبر (تابورا) حصن الاسلام المنيع فى افريقيا الشرقية يقدر سكان هذه العاصمة بنحو (35) الف نسمة منهم (25) الف نسمة يدينون بالاسلام ويوجد بمدينة (تابورا) وضواحيها نحو (30) مسجدا ومدرسة لتحفيظ القرآن واربعة مساجد كبيرة خصص احدها للعرب واما باقي المساجد فعبارة عن مبان بسيطة من القش ولا تقام صلاة الجمعة بانتظام الا فى مساجد العرب وتقوم المكاتب الدراسية بتعليم النشء القراءة والكتابة بالحروف العربية وبتلقينهم القرآن .

ولقد ثبت تاريخيا ان المسلمين الغرباء تمكنوا حتى سنة 1911 المتداخلة فى سنة 1912 من التغلغل الى قلب المناطق العربية من افريقيا الشرقية ونشر الدعوة الى الاسلام بين الوطنيين كما استطاعوا وضع هذه البلاد تحت نفوذهم الاقتصادي والتجاري وما ذلك الا للتطور الفكري نحو الافكار الاسلامية بين قبائل الوطنيين من حين لآخر . ولقد انتشر الاسلام فى الاراضي السودانية من تلقاء ذاته تمشيا مع اللغة العربية بدون أي مجهود يذكر . الفتح الاسلامي كان فى آونة نهضة فكرية اتجهت فيها الاذهان الى المطالبة بديانة ثابتة الدعائم صحيحة الاصول .

ومن العوامل السياسية التي ساعدت على انتشار الاسلام تدخل القبائل الاسلامية فى الاوساط الوثنية بطرق سليمة كما تم لهم ذلك فى السودان العربي ، اما العوامل الاجتماعية التي ساعدت على نشر الديانة الاسلامية فى تلك الاقاليم فكانت اقوى حجة وانجح اثرا الا انها لاتعتبر سببا اوليا مثل العوامل السياسية حيث انها كانت تعمل على انتشار الدين بطرق بعيدة المدى ولكنها كانت فى كثير من الاحوال تاتي بنتائج انجع من العوامل السياسية الاولى فان الاسلام كان ولا يزال فى نظر اهالي السودان يعتبر فى مرتبة عالية من الثقافة والتحضر بالنسبة لعبادتهم القديمة .

ولقد ساعدت الفتوحات العظيمة على انتشار الاسلام بسرعة فائقة داخل البلاد تمكن ما يزيد على (50) الفا من الغولبا المسلمين من جعل ما لايقل عن (245) الفا من العبيد الوثنيين يدخلون الاسلام وذلك لمعرفتهم باللغة العربية .

تاثير الفكر فى اللغة :

للفكر اثر عظيم فى اللغة ولولا الفكر لم يكن لوجودها أية فائدة. الفكر هو الذي يربط الالفاظ بمعانيها وهو الذي يتوسل به الانسان الى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة او يبتدع فيها اساليب يضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها .

أما اللغة فهي تصور ما يخطر فى الفكر من المعاني وهي التي تجعل المعاني محفوظة باقية . يقول احد الفلاسفة : ان الافكار التي تودع فى الالفاظ كالشرارات التي لاتبرق الا لتذهب وهنا نتساءل هل يمكن اتحاد البشر فى لغة ؟ قال العالم الفرنسي ديكارت : (ان تعدد اللغات ادى الى صعوبة التفاهم بين الافراد والجماعات وهذا ما جعل سير المدنية بطيئا) وجاء الطبيب البولوني Esperanto اعتمد على (28) حرفا ووضع له (16) (لودفيج زامنهوف) فوضع اللسان المسمى (الاسبرانتو) قاعدة معظم كلماته من اللغة الرومانية والانجليزية . وفى العالم جمعيات تدعو لهذا اللسان يقدرونها بنحو (1776) جمعية وفى المانيا وحدها من هذه الجمعيات (441) جمعية مركزها الرئيسي فى مدينة (لايبتسيق) — ولجمعيات العالم كلها مركزان اساسيان احدهما فى (جنيف) والآخر فى (باريس) وفى أوروبا وأمريكا والصين واليابان صحف تصدر بهذه اللغة وفى دائرة المعارف الالمانية بلغ عدد المتكلمين بها قرابة (130) الفا .

وخلاصة القول انه ليس من الهين ولا من السهولة بمكان أن توضع لغة تتلقاها كل الامم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها ، واذا فرضنا ان شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها فان الشعوب التي تنطق (بالضاد) احرص الناس على حياة لغتهم فمن المحال ان يستبدلوها بلغة اخرى .

ولنشرع الآن فى الاجابة عن الاسئلة :

هناك تلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة بل هناك ارتباط لان انتشار الاسلام متوقف على انتشار وقوة اللغة فى أي مكان أو زمان بل كل منهما متوقف على الآخر فبدون اللغة العربية لاينتشر الاسلام لان القرآن

الكريم (الذي انزل على النبي العربي فى غاية البلاغة والفصاحة ولا يمكن للغات الاجنبية أن تعبر عما جاء فيه) قد تحدى الامم بأسرها (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وكذلك الاحاديث النبوية .

فالاسلام كان أكثر ذيوعا وانتشارا فى البلاد التي تحمل طابع العربية أو تتكلم بالعربية أو ان الاسلام يكون أكثر انتشارا عندما ينفر المرشدون والموجهون العالمون باللغات الاجنبية بالاضافة الى اللغة العربية .

ان للاسلام ثقافة مبتكرة مستقلة تستمد نورها من وحي القرآن الكريم والسنة المطهرة دون أن يكون لاية أمة من أمم الارض على المسلمين يد فيها .

فلقد كان للمسلمين فقه أوسع ما عرف فى علوم التشريع والاجتهاد وأوضحه نظرا واصدقه مخرجا وها هي ذي آثار ثقافتهم بارزة فى كتبهم كأصدق شاهد على صفاء أذهانهم واستنارة افكارهم وما كان سطوع هذه الكواكب المشرقة وما لها من التأثير لاخراج الناس من الظلمات الى النور الا بسبب احرازهم على أوفر جانب من الثقافة الفكرية وتضلعهم فى اللغة العربية التي تمكنوا بفضلها من نشر الاسلام .

ولندع الحكم بين اللغة العربية واي لسان أعجمي لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الاعجمي فهو الذى قد يصغى اليه الناس متى انسوا فيه الانصاف ويتلقون حكمه بالقبول . والذى اقوله وانا على بينة مما اقول ان اساليب اللغة العربية اقرب الى النظم الطبيعية من اللسان الالماني مثلا فان فيه ضروبا من التصرف كالافعال المركبة من قطعتيها احداهما أول الجملة وثانيتهما عند انتهائها فالسامع لايعرف معنى الفعل ومن هنا يفقد الكلام ترتيبه الطبيعي ومن اجل هذا فان اصحاب اللغات سبقونا الى عقد المجامع اللغوية منذ احقاب فالمجمع اللغوي فى المانيا تالف سنة 1617 ، والمجمع اللغوي الافرنسي سنة 1634 واننا لا ننسى بأن كلمات كثيرة حدثت فى اللغة الغربية واصبحت تجري على السنة ادبائنا مما تشتد الحاجة فيه الى مجمع لغوي اصبح اليوم فى ايدينا .

أسئلة ايضاحية :

1) ان السبب المباشر فى انتشار الاسلام هو صحة الدعوى التي جاء بها رسول الامة العربية لانها قامت على الحجة والبرهان والمنطق السليم ومما ذلل الدعوة فى قلب الجزيرة العربية طبيعة الجزيرة نفسها ومعرفتها للغة العربية اصالة وسليقة .

(وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) (سورة الزخرف) أي ان هذا القرآن شرف لك ولقومك وسوف تسألون عن التفريط فيه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون (27) قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (الزمر) .

كانت العرب بعد اسماعيل عليه الصلاة والسلام على دين ابيه ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم تعبد الله وتوحده وكان العرب آنذاك يعبدون الحجارة وقد ظهر منهم أفراد لم ترتهم عبادة الاحجار والاشجار ، فكانوا يعبدون الله على ملة ابراهيم الا انهم كانوا ينتظرون نبيا عربيا يخلصهم من هذه المعبودات والخرافات ينتظرون من يجمع شتاتهم ومعنى هذا ان لغة ابراهيم هي العبرانية وهم العرب الاقحاح فلم تصل دعوته الى أعماق قلوبهم وقد كان ابراهيم فى الحجاز يدعو الناس الى دين الله كان غير قادر على افهام العرب اللغة العبرية لغته ولغة ولده اسماعيل ولذلك دعا ربه وهو يبني البيت (الكعبة) مع ولده اسماعيل فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم (129) (البقرة) . وقد جرت سنة الله فى الكون انه كان يرسل لكل أمة رسولا منها لتفهم وتعي منه ما يقول قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) (4) (ابراهيم) .

ان نزول القرآن عربيا فى العرب وفى جزيرة العرب كان بمثابة اقامة الحجة اذ لم ينزل لهم كتابا اعجميا لايعرفونه ولا يفهمونه كما انه لم يرسل لهم رسولا اعجميا لايفهمون حديثه ولذلك قال سبحانه (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين ((103 النحل) . فآياته واضحة يفهمها العرب لانها لغتهم ولئلا يكون للعرب على الله حجة قال تعالى : (ولو نزلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، آاعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء (44 فصلت) .

اما اليوم فان الاستعمار بشتى انواعه والوانه قد عزز عصاه فى أكثر الدول العربية والدول الاسلامية

فتدخل فى نظمها ودراساتها ومناهجها وقد نجح المستعمر فى تضليله وتمويهه .

2) ان الوازع الديني يقوى فى النفوس متى كان دعاة الوعظ والارشاد واعين لرسالتهم . فقد كان بلدنا قبل الاستعمار البريطاني اقوى ايمانا واصلب عودا ويقينا . وكان العهد العثماني غير مشجع للعلم والتعليم لكنه كان يقوي ويشجع النواحي الدينية حرصا على سمعة الاسلام والمسلمين وتنفيذا لاحكام القرآن . اما عهد الاستعمار فكان عهد حرية واباحية ولا دينية .

3) ان القرآن الكريم والحديث النبوي قد سلكا فى البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ وان فتح الممالك الكبيرة كبلاد الفرس والروم قد زاد فى مجال اللغة بسطة بما نقل اليها من المعاني العلمية او المدنية ففضل الاسلام على اللغة العربية يظهر فى غزارة مادتها وبراعة أساليبها واتساع افقها ومذاهب بيانها وكثرة الاغراض التي يتسابق اليها فرسان الخطابة والكتابة والذي أحاول الحديث عنه هو أثر لغة القرآن بالثقافة الاسلامية فى تغذية الفكر الانساني ومسايرة التطور العلمي والاجتماعي ، فقد سطع نور الاسلام على وجه المعمورة فلم يجد من ثقافات الامم الغابرة الا امشاجا من حكمة اليونان وآداب الرومان وتعاليم المسيحية على ما أصابها من تحريف فحمل الملك (غوستينان) على الفلاسفة والحكماء انتصارا منه لآراء الكنيسة الغربية التي كان من قواعدها يومئذ اضطهاد العلم والعلماء والقسوة على الحكمة والحكماء ففر من وجه العسف الروماني جم غفير من الفلاسفة واستعملوا النظريات الفلسفية للذياد عن آراء فريق من المسيحيين حتى امتزجت نظرياتهم بهذه الآراء وكان منهما مذهب (الافلاطونية الجديدة) وهو مذهب كنسي اكثر منه فلسفي وهكذا اخذ أثر الثقافةالقديمة يضعف ويتضاءل أمام جور المتعسفين من حكام الرومان حتى قام بناء الاسلام الشامخ فى أقل من ربع قرن أكمل الله فيه على يد خير امة أخرجت للناس . فكل قطر من الاقطار الاسلامية غير العربية التزم اللغة الرسمية السائدة لدولة ذلك القطر وقد اشرنا الى ان للاستعمار اليد الطولى فى تكييف الشعب من حيث العناية باللغة والدين فللنواحي السياسية دخل فى قوة وضعف كل من الاسلام ولغته ، اما الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية والآسيوية فانهم كانوا يعتنقون الاسلام على قدر وعيهم وثقافتهم وخبرتهم باللغة العربية فالنظر الى المثقفين هو من حيث المستوى الثقافي العلمي واما عامة الناس فى الجاليات الاسلامية فيسودهم التقليد فى التمسك بالاسلام .

4) قد تعوق اللهجة الاقليمية احيانا التعابير العربية المحلية لانها مزيج من لهجات اكتسبتها من اقاليم اخرى .

5) اننا فى الاردن نهتم تلقائيا وعقيدة باللغة العربية كلغة للتخاطب ولابد لنا من مجمع لغوي لكل قطر للاشراف على تهذيب ما طرأ على اللغة وما قد يطرأ عليها . ولابد من العناية باللغات الاجنبية الاخرى ولكن المكانة التي تحتلها العربية فى هذا البلد هي الاولى وختاما اشكر القائمين على المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربي .